نماذج من كتابات حول أحمد فارس الشدياق

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

وقد نهج في كتاباته نهجًا جديدًا جمع فيه بين متانة العبارة ورقّة الإنشاء، فلم يخالف الأقدمين، ولم تثقل عبارته على أبناء العصر. وكان في اللّغة بحرًا زاخرًا لا يكاد يغيب عنه شيء من مفرداتها وشتيت موادّها، وهو مع كلّ ذلك جيّد الانتقاد، متوقّد الذهن، حَسَن التصرّف بوصف مشهوداته ومسموعاته. وقد خاض من السياسة بحرًا لم يبلغ ساحله أكثر كَتَبة الشرق، واتّخذ من اللّغة أوضاعًا كثيرة عبّر بها عن مصطلحات الإفرنج، فكانت جوائبه مثالًا تحدّاه أكثر الكتّاب. ولولا إفاضته- سامحه الله- في فاحش المجون، وتصلّبه في تعزيز الوجهة التي يوجّه إليها كلامه، بصرف النّظر عمّا عسى أن يكون فيها من المعايب، لقلنا إنّه الإمام الذي يُرْجَع إليه، والمثال الذي لا يُعَوَّل إلّا عليه.

المعلّم بطرس البستاني،

"الشدياق" في **دائرة المعارف وهو قاموس عام لكل فنّ ومطلب،** المجلّد العاشر، بيروت، دار المعرفة، [د.ت.]، ص ٤٣٠.

###

"امتاز المترجَم بإتقان فنَّي النظم والنثر والإجادة في كليهما. فتراه إذا نظم أو نثر إنّما يفعل ذلك عن سَعَة وارتياح ،كأنّه وعى ألفاظ اللغة في صدره، وأخذ عليها عهدًا أن تأتيه صاغرة حالما يحتاج إليها. فإذا خطر له معنى سبكه في قالب من اللّفظ لائق به، بغير أن يتكلّف في ذلك مشقة أو تردّدًا. فترى كتاباته طليّة طبيعيّة ليس فيها شيء من التكلّف أو التقعّر، على كونها بليغة فصيحة. والسبب في ذلك حدّة ذهنه، وقوّة ذاكرته، وسَعَة اطّلاعه، وكثرة محفوظه، مع حرّيّة قلمه. وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذِر، وأظنّه السبب فيما نراه ببعض مؤلّفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا، وتمجّه أذواقنا. على أنّ المجون، إذا لم يتجاوز حدّه، كان أحماضًا أو هو بمثابة الملح للطعام. وذلك كثير في كتابات المترجَم، ممّا يرغّب المطالع في المطالعة، فلا يملّ منها وإن طالت. ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة، وارتباط المعاني بعضها ببعض، وانتساقها مع التوسّع في التعبير، وتتبّع الموضوع إلى جزئيّاته، مع مراعاة الموضوع الأصليّ والعَوْد إليه. وترى ذلك واضحًا في كتابه "كشف المخبّا". فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس، مثلًا، فإنّه يتطرّق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك. فيذكر وجه الخطإ، هنا أو هناك، وما هو سبب هذه العادة. وربّما جاء بتاريخها، ومن جاء بها، حتّى يخال لك أنّه خرج عن الموضوع، ثمّ لا تشعر إلّا وقد عاد بك إليه بغير تكلّف. وكلّ ذلك بغاية السلاسة، والطلاوة، مع البلاغة. وترى في مؤلّفاته كثيرًا من الألفاظ العربيّة جاء بها للتعبير عن معانٍ حديثة إفرنجيّة لم تكن عند العرب، وهي في الغالب تدلّ على حُسْن اختياره. ومن الأدلّة على اقتداره في التعبير، أنّه مُغالٍ. فإذا مدح بلغ ممدوحه عنان السماء، وإذا هجا أنزل مهجوّه دركات الجحيم.

وترى كتاباته، على بلاغتها وحسن سبكها، تتجلّى فيها البساطة والسهولة، كأنّ كاتبها كان يكتب كل ما يمرّ بذهنه على غير تكلّف أو مراعاة لخطّة الكتّاب قبله، وهو استقلالٌ في الرأي واعتماد على النفس."

جرجي زيدان،

تراجم مشاهير الشرق، نقلًا عن: دي طرّازي، الفيكونت فيليب، **تاريخ الصحافة العربيّة**، الجزء الأوّل، بيروت، المطبعة الأدبيّة، ١٩١٣، ص ٩٨.

###

"وللفقيد جملة رحلات في أوروبّا وتونس والجزائر، مع عدّة تآليف غرّاء فريدة في بابها. وكان عزيزًا بين قومه، محبوبًا لدى العظماء، مقرّبًامن الملوك والأمراء. فكانوا يقدّمون له أنفس الهدايا، وأسمى النياشين الإفتخاريّة. وقد أنشأ الجوائب في الآستانة العليّة متولّيًا تحريرها، فنال أعظم شهرة في حسن التعبير والتحبير، وبلاغة الإنشاء، وفصاحة العبارة. أحرزت الجريدة، بذلك، أهميّة ما نالتها قطّ جريدة عربيّة، لا قبلها ولا بعدها. ولاشكّ أنّنا، بِفَقْدِ هذا العلّامة العظيم، فَقَدْنا أعظم ركن للأدب".

وكان لأحمد فارس مراسلات مع عظماء العالم وملوكهم. وقد وجدوا بين أوراقه، بعد وفاته، مئات من هذه الرسائل التي تدلّ على علوّ منزلته، وسَعَة معارفه، واشتهار صيته. وممّا يؤخذ عليه إطالة لسانه وقلمه في حقّ الذين ناظروه من جهابذة العلم أثناء مجادلته معهم ،كما أثبتنا ذلك عندما ذكرنا أخبار جريدة "الجوائب".

جريدة الإجبسيان غازيت – القاهرة،

نقلًا عن: دي طرّازي، فيليب، **تاريخ الصحافة العربيّة**، الجزء الأوّل، بيروت، المطبعة الأدبيّة، ١٩١٣، ص ٩٩.

###

ولم يفتر عن معاناة العلوم والمطالعة والتأليف حتّى ضعف بصره، وأثقلت الشيخوخة كاهله. فأوقف الجريدة (الجوائب) وهبط مصر سنة ١٨٨٥ حيث أكرم الوزراء والعلماء وفادته. وأثناء إقامته هناك، نال شرف المثول لدى الخديو توفيق الأوّل الذي أثنى على خِدَمِه الطويلة في سبيل إعلاء شأن اللّغة العربيّة. ثمّ عاد إلى القسطنطينيّة ولم يفارقها حتّى حلّ به القضاء المحتوم في ٢٠ أيلول ١٨٨٧ وهو في السنة الرابعة والثمانين من عمره. فأذاعت شركة روتر التلغرافيّة نبأ وفاته في أطراف المعمور، ورثته جرائد الشرق والغرب بما يستحقّه من الثناء. وبعد تسعة أيّام، شُيِّعت جثّته من الآستانة لتُنقل إلى جبل لبنان مسقط رأسه. فجرى له مشهد فخيم اشترك فيه وزراء السلطنة، وسفراء الدول الأجنبيّة، والأمراء والعلماء ولأطبّاء والتجّار والأعيان وأرباب الجرائد. وقد دُفنت جثّته في الحازميّة، بغاية التعظيم والتكريم، إلى جانب قبور المتوفّين من حكّام جبل لبنان.

الفيكونت فليب دي طرّازي،

تاريخ الصحافة العربية، الجزء الأوّل، بيروت، المطبعة الأدبيّة، ١٩١٣، ص ٩٩.

###

على أنّ فضله على اللغة لم يقف عند هذا الحدّ، بل جاوزه إلى خدمتها من ناحية أخرى لها شانها وأهميّتها في عالم الأدب، وهي انصرافه إلى طبع المخطوطات العربيّة النادرة في مطبعة الجوائب، وإذاعتها في العالم العربيّ، وهي مأثرة له تُذكَر بالشكر والإطراء، مع ما يُذكَر له من الأعمال المجيدة، والمآثر الغرّاء.

بولس مسعد،

فارس الشدياق، مصر، مطبعة الإخاء، ١٩٣٤، صفحة ٤٦.

###

قلّما بلغ رجل في القرن التاسع عشر منزلة الشدياق في الأدب والسياسة. فقد كان أستاذ ذلك العصر في كلّ بحث ومطلب، وله في التجديد أبلغ أثر يعرفه من قرأ آثاره الجليلة. فهو الشاعر المطبوع، واللغويّ المحقِّق المستنبِط، والكاتب الأديب المبدِع، الذي جرت الحياة حيث مرّ قلمه الساحر، والسياسيّ الداهية الجريء في أحرج المواقف وأخطرها.

الاحتفال الخمسنيّ بذكرى العلاّمة أحمد فارس الشدياق، سيرته، تأليفه، لجنة تكريمه، [١٩٣٧].

###

قال الزيّات في "تاريخ الأدب العربيّ" : وأنشأ جريدة الجوائب، وأودع فيها من فنون النثر، وعيون الشعر، وضروب السياسة، ما رواه لسان الحمد، وتناقلته بُرَدُ الشرق والغرب. كان في سياسة الشرق مرجعًا وحجّة، فسعى إليه المجد والثراء، وخطب ودّه الأمراء والعظماء. وورد الشدياقُ مصرَ وقد تنفّس به العمر، وخدّد وجهه الكبر، فأحسن المصريّون وأميرهم لقاءه ووفادته.

كان الشدياق متضّلعًا من فنون الأدب، متصرّفًا في فنون الإنشاء، من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة، حافظًا لمفردات اللسان، بصيرًا بمذاهب البيان، يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متساوي المعنى، موفور الإزدواج، شديد الإطناب، كثير الإستطراد، ظاهر المبالغة. أمّا شعره فأدنى رتبة من نثره، وأقلّ جودة، وأضعف ابتكارًا. فهو في نثره مجدِّد، وفي النظم مقلِّد، وفي كليهما- بالنسبة إلى أهل عصره- سابق مجيد.

أحمد حسن الزيّات،

"أحمد فارس الشدياق" في تاريخ الأدب العربيّ، نقلًا عن: عبّود، مارون، **صقر لبنان، بحثٌ في النهضة الأدبيّة الحديثة ورجلها الأوّل أحمد فارس الشدياق،** طبعة أولى، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٠، ص ٢٠٢-٢٠٤.

###

أحمد فارس الشدياق أحد ثلاثة أو أربعة في تاريخ الأدب العربيّ. وقد يكون فذًّا من أفذاذ العالم أجمع في كتابين: الأوّل "الفارياق" الذي لم يكتب مثله شرقيّ، كما يقصّر عنه الكثيرون من نوابغ الغرب ، فدافيد ديكنز وكتاب ألفونس دوده Le Petit Chose أُلْهِيَة بالقياس إليه، وربّما كان بينه وبين "اعتراف" روسّو بعض القرابة الدمويّة...

أمّا الثاني فكتاب "سرّ الليال" الذي كشف الغطاء عن ناووس اللغة العربيّة، وأعاد الحياة إلى مومياها، فتنفّست وعطست، بين يدي أحمد، سبع عطسات كابن أرملة إليشع... ومَن درس هذا السفر البديع يقول مع "بيفون": ليس النبوغ إلّا صبرًا طويلًا. ولكي تفهم بعض "سرّ الليال" اهجر النرد والبريدج مئات ليال. ليتني أُعطى من الأعمار ما تمنّاه المتنبّي لسيف الدولة، فأدرّس الشدياق عن بني أمّي جميعًا، وأعرّفهم بأخيهم وابن عمّهم هذا.

ليس في القرن التاسع عشر أدب حيّ، كما نفهم الأدب اليوم، إلّا ما كتبه الشدياق في "فارياقه" و "واسطته" و "كشف مخبّاه" ، وفصوله التي أذاعتها "جوائبه". وإنّني لأضحك ممّن يعدّ "الفارياق" كتابًا بذيئا فيؤاخذ الرجل على أحماضه، متغاضيًا عمّا في كتابه الطريف من حياة راقصة، وعِبرة باسمة. فهو أشبه بالعوالم التي اكتشفها باستور في نقطة الماء. فلنتتلمذ لباستور في الأدب إذا كنّا نحاول فهم رجل كهذا.

يقول الناس: لا حياء في الدين، وأنا اقول: لا حياء في الفنّ. وغير الفنّان يرى الفنّ بذيئًا. فاقرأ الشدياق قراءة فنّان إن رمْتَ تعظيمه، واقراه قراءة أهبل إن شئت أن تصبّ على رأسه أقذار البواليع. فسيّان عند أحمد هذا وذاك.

مارون عبّود،
صقر لبنان، بحثٌ في النهضة الأدبيّة الحديثة ورجلها الاوّل أحمد فارس الشدياق، الطبعة الأولى، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٠، ص ١٠٢-١٠٣.

###

كانت الطبيعة جوّادة على الشدياق، وكانت الأقدار أيضًا سخيّة عليه. فالأولى وهبته ذكاء حادًّا، وذوقًا مرهفًا، وعينًا نافذة، ومزاجًا عصبيًّا، وقدرة على الأخذ والعطاء، وجَلَدًا ما بعده من جلد، وعقلًا حازمًا يسيطر- في كثير من الأحيان- على هذه المواهب النادرة، فيفيد منها أيّما فائدة.

وأمّا الثانية فقد عزّزت الأولى بتراث علميّ، وبيئة سيّدة ذات نضال قديم وأمجاد. أضف إلى هذا حرب الزمان- تجارب قاسية عاناها الشدياق مذ كان حَدَثًا-. فمن دار نُهبَتْ، ووالد مات مشرَّدًا، وأخ جُرِّع كؤوس العذاب وقضى سجين الظلم، ومورد رزق شحّ حتّى بات وَشَلًا[١]؛ وأسفار، وأخطار، وأزمات، وعوامل مختلفة من شأنها ان تصهر النفس الإنسانيّة وَتُمَرِّسُها بجميع الآفات؛ تعلو بها إلى الأوج، وتنحدر إلى الأعماق، وتوسّع من آفاقها حتّى آخر المدى.

١. الوَشَل: الماء القليل المَتحَلِّب من الصخر.

مؤثّرات غنيّة اتّفقت للشدياق فخلقت منه لغويًّا حيًّا، وكاتبًا وافر المادّة، وشاعرًا قد لا يفوته الوجدان، ومفكّرًا حالفه العقل والعلم ولم يفتقر إلى الميادين، وسياسيًّا علّمَتْه الأحداث كيف يتّقي العوادي ويمرق من الظلمات.

فإذا هو أديب بمعناه الصحيح، وقائد من قادة القلم العظام، يؤثّر ، ويصوّب، ويوجّه، ويُحْتَذى. وإذا لنا منه في كلّ حقل ثمر.

فمن تجاربه اللغويّة، كان لنا سرّ "الليال في القلب والإبدال" و "اللفيف في كلّ معنى ظريف"، و "الواسطة في معرفة أحوال مالطه"، و"كشف المخبّا في فنون أوروبّا"، ثمّ "الساق على الساق في ما هو الفارياق" وهو كتاب للوجدان فيه حظّ كبير. وكان لنا أخيرًا "الجوائب"، الصحيفة القائدة في ميدان الأدب، والسياسة، والعلم، والسَّبْق في الخبر. ومنها كان "كنز الرغائب في منتخبات الجوائب" مجموعًا في ستّة أجزاء. وإلى ذلك ما ترجم عن الإنكليزيّة والفرنسيّة من: توراة، وكتب تعليميّة، وما ألّف في الحقل الأخير.

ميخائيل صوايا،

أحمد فارس الشدياق، حياته، آثاره، الطبعة الأولى، بيروت، دار الشرق الجديد، ١٩٦٢، ص٣٩-٤٠.

###

لعّل الشدياق أكبر رائد في تاريخ أدبنا الحديث؛ فقد اجتمعت له صفات ذاتيّة نادرة: إحساس مُسْتَوْفِز[٢] عميق بتجربته الإنسانيّة، وقدرة ذهنيّة حادّة تمكّنه من وعي هذه التجربة، والنفوذ إلى معانيها، وجرأة بالغة على تحليلها والتسليم بحقائقها والخروج بها إلى الناس. يمدّ هذا كلّه ثقافة عربيّة إسلاميّة متنوّعة حصّلها الشدياق على أصولها، من مصادرها الرئيسيّة، وطعّمها بألوان مختلفة من ثقافات العصر الجديدة وآدابه؛ أعانه على تحصيلها أسفاره الواسعة، ومخالطته العلماء والأدباء، وحيويّته الفائضة، وعمله في الصحافة، وتعدّد اللغات الأجنبيّة التي يحسنها (الفارسيّة والتركيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة). فهذا الذي جعل من الشدياق- في أكثر ما كتب- هذا الرائد الضخم لنثرنا الحديث المنفتح على الحياة والمعاناة والحقيقة، المتخلِّص من قيود الزينات والزخارف البديعيّة التي كانت شائعة في كتابة العصر، القادر على مخاطبة الإنسان العربيّ في مجتمعه الحديث، وعلى التعبير عن همومه ومطامحه وقضاياه تعبيرًا ممتلئًا أصيلًا قويًّا، ذكي الإشارة، فاتن النغمة، بسيط المظهر، ساحر الإيماءة، مرنًا حيًّا دقيقًا، شاسع الإيحاء، حلو الفكاهة، سهل المأخذ.

وأكثر ما يروّع من الشدياق قدرته العجيبة على الابتكار والتوليد الفنيّ، حتّى ليذكّر قارئه، في كثير ممّا كتب، بالجاحظ. فمن هنا قَدِر على أن يجعل من سيرته الذاتيّة التي كتبها في كتابه (الساق على الساق في ما هو الفارياق) سيرة إنسانيّة واسعة المرامي مثيرة حافلة، وأن يطّل في كتابيه (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) و(كشف المخبّا عن فنون أوربّا) على حقائق العصر الحضاريّة: النفسيّة والإجتماعيّة والدينيّة، وأن يصل إلى كتابة المقالة الفنيّة ذات الأبعاد الذاتيّة الحارّة في ما كتب منها في مجلّته (الجوائب)، وأن يفي فيها بمقتضيات الفنّ الصحفيّ الحديث في التعبير السهل، والفكرة الواضحة المحدّدة، والإستجابة الحيّة، والإرتباط الدائم القويّ بوقائع الحياة الجارية وملابساتها المتجدّدة، وأن يضع لهذا مصطلحات لغويّة صالحة نقل بها الفكر العربيّ الحديث وأدبه نقلة واسعة إلى مدارج الحضارة الحديثة والتأثّر بمكتسباتها والنفوذ إلى حقائقها واقتحام غمارها، وأن يُقدِم على نشر جملة من تراثنا الأدبيّ المخبوء، ويسهر

---

٢. مُسْتَوْفِز: مُتَهيِّئ للأمر.يُقال: استوفز استيفازًا في قَعْدَتِه: قَعَدَ غير مطمئنّ البال.

على طبعه في مطبعته في الآستانة [مطبعة الجوائب]، وأن يدرك إدراكًا عميقًا تَبِعَة الأمانة التي حملها في التوجيه والنقد وفضح الزيف في وجوهه كلّها، ونقض هيكله، والسخرية من ممثّليه، وهدّ القديم المهترئ في صوره كلّها أيضًا، وبثّ الإيمان بالقدرة على التطوّر، وتبديد الخوف من الجديد.

وقد خالط هذا العمل الكبير الذي حقّقه الشدياق رعاية خاصة للمرأة جعلتها تبدو في كتبه حقيقة إنسانيّة ضخمة جدًّا، تكاد تستبطن حقائق الحياة كلّها، وتضع لها قواعدها الأساسيّة: فهي- في كتبه- تحكم كلّ ما يراه الشدياق وما يفعله وما يفكّر فيه وما يتأمّله ! ومردّ هذا- في رأينا- إلى أنّ المرأة كانت حاجة من أكبر حاجات حياته، لتفتّح حسّه ويقظته وَعُرامه[٣]؛ فمن هنا تكون قواه الجنسيّة- كما تكون عند يَقِظِي الحسّ المنفتحين للحياة وملاذّها على اختلاف الصور- في مستوى قواه العقليّة والعاطفيّة حدّة وقوّة. فلهذا حفلت كتبه بأذكى الإيماءات إلى المرأة ومفاتنها الجسديّة، وبالتلميحات الجنسيّة الطريفة؛ حتّى لقد أقام سيرته الذاتيّة — على نحو ما يقول هو في مقدّمتها- على دعامتين إحداهما المرأة، والثانية اللغة التي أُغرم الشدياق بها أيضًا غرامًا عجيبًا جعله يحفظ شواردها وغريبها، ويتعبّد في محرابها، ولا يني عن ذكر سيّده صاحب القاموس!

عبد الكريم الأشتر،

"أحمد فارس الشدياق"، في **نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النثر، ١، أعلام الروّاد**، دمشق، المكتبة الحديثة، ١٩٦٦، ص ١٦٣-١٦٤.

###

لا نخال كاتبًا جدّد عهد الجاحظ (القرن ٩) وأبي حيّان التوحيديّ (القرن ١٠) كما فعل الشدياق (في القرن ١٩) مع ما هناك من الفوارق بين العهود، وما تناوله الشدياق من الموضوعات المتّصلة بأسفاره في بلاد الحضارة الغربيّة الجديدة بحيث "بذر لغتنا الفصحى في كلّ الأقطار، حتّى بين أتراك الآستانة، ثمّ في العالم كلّه في "جوائبه" كما يقول مارون عبّود (في القرن ٢٠) وهو أقرب الناس مادّة إلى سلفه الشدياق. وفوق ذلك فإنّ الشدياق في كتابه "الساق على الساق" و "كشف المخبّا عن فنون أوربّا" قد أخرج العقل العربيّ، لا من ديماميس الهمذاني والحريري وكهوف القاضي الفاضل (القرنان ١١و١٢) فحسب، بل من كافّة الشوائب التي لحقت بالأدب العربيّ بعد ذلك.

يُعاب على الشدياق: (١) استرساله في حشر المترادفات والغريب من الألفاظ، و(٢) استعماله التعابير الحوشيّة المنفّرة. ولكنّ لهذه الشوائب ظروفًا مخفّفة لا يسع الناقد العادل إلاّ أخذها بعين الاعتبار.

الأولى ناشئة عن اضطراره إلى مجاراة من سبقه من الكتّاب والشعراء وإلى تقليد أساليبهم ليتفوّق عليهم في حلبة ميدانهم، وهو الواسع الاطّلاع، الواقف على أسرار اللغة وقوفًا قلّما بلغه عالم في عصره. أضف إلى هذ ميله إلى إثبات مقدرته اللغويّة لتبرير نقده وإسناد ثورته إلى أسس عميقة. إنّ هذا ليذكّرنا بسقراط الفيلسوف الأعظم الذي قلّد أسلوب السوفسطائيّين ليجعل نقده أوقع في النفوس وأقرب إلى الإصلاح.

٣. عُرامه: حدّته وشدّته. يُقال: عَرَمَ الرجل عُرامًا: اشتدّ وخرج عن الحدّ.

أمّا ظروفه الثانية فهي النتيجة الحتميّة لما أودعت مصائب ذويه ومصائبه في قلبه من المرارة، ولما قاسى من استبداد السلطتين المدنيّة والدينيّة، ولاشمئزازه من الرياء الإجتماعيّ، والرغبة في كسر نطاق التقاليد التي أحاطت بالأدباء وسجنتهم مع ذوي الجاه من ممدوحيهم ضمن أسوار الوقار المصطنع وأستار الفساد والظلم. وقد أراد التحرّر من القيود اللفظيّة والزخارف البديعيّة ليغوص في تصوير الدقائق، فجاء ابتذاله عنيفًا عنف ردّ الفعل الذي يطلق النفس المكبوتة إلى أبعد من المدى اللائق، شأن كلّ ردّ فعل وتجاوزه حدود المقابلة العادلة.

الشيخ نسيب وهَيْبه الخازن،

"هذا الكتاب"، في **الساق على الساق في ما هو الفارياق أو أيّام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام**، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦، ص ٥٠-٥١.

###

وهنا نزل إلى الميدان لبنانيّ آخر اشتُهر بعدائه لأمراء لبنان وأمراء الكنيسة المارونيّة، هو فارس الشدياق أخو طنّوس وأسعد وصاحب الساق على الساق. وكانت الصدارة العظمى قد استقدَمَتْه إلى الآستانة في السنة ١٨٥٧ وعهدت إليه تصحيح مطبوعاتها العربيّة. ففعل وباشر في السنة ١٨٦٠ في إصدار جريدته الشهيرة الجوائب. وعند اشتداد الأزمة بين المتصرّف وبين كرم نشر مقالًا في جريدته أشار فيه إلى اضطراب الحال في لبنان وخلوّه من الراحة الحقيقيّة مبيّنًا أنّ لا نفوذ لحكومة المتصرّف إلاّ في الجنوب "حيثما تجد الأهالي قد خاف كلّ منهم الآخر وانحطّت قوّته من جرّاء الحوادث السابقة". إلى أن يقول إنّ لا حكومة في الشمال، بل كلٌّ مستقلّ بنفسه، وإنّ المتصرّف لم يراعِ حقوق من أذعن إلى حكمه في الجنوب بل ضاعف الضرائب من واحد إلى خمسة.

وعندما "استدعى أحد أعضاء مجلس الإدارة من دولة المتصرّف إجراء قاعدة العدالة كان الجواب تعزيرًا وشتمًا وتهديدًا بالعزل". ولدى اطّلاع المجلس الإداريّ على هذا المقال استجوب حسن عيد عضو الموارنة رسميًّا ما إذا كان حدث مثل هذا بينه وبين المتصرّف فأجاب رسميًّا أنّ لا صحّة لما ورد في الجوائب. فقرّ قرار المجلس بوجوب التعرّف على شخصيّة صاحب المقال وإحالته إلى المحاكمة مع صاحب الجوائب. وأضاف المجلس في قراره أنّ سياسة الجبل جارية بموجب القانون والشرع "وأنّ المغايرات السابقة كالقتل والمقاتلات واستيلاء القويّ على مُلك الضعيف وعدم راحة الأهلين قد أضحت لا أثر ولا عين" وأنّ المتصرّف لم يتدخّل في توزيع الضرائب أو غيره من متعلّقات المجالس.

أسد رستم،

"داود يستهوي" في **لبنان في عهد المتصرّفيّة**، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣، ص ٥٤.

###

والشدياق زعيم المجدِّدين. قام بحركة التجدّد هذه: شاعرًا، كاتبًا، لغويًّا وصحفيًّا، وناقدًا لاذعًا. هو شاعر عميق الغور واسع المدى، تصويريّ الفنّ، تقرأ له ذمّ الدنيا، وشكاية الزمان، والهجاء والغزل والرثاء.

وهو كاتب مبتكِر، فذّ ينتصب جبّارًا ويبدو وحيد عصره ونسيج وحده، ولا سيّما في كتابه "الساق على الساق في ما هو الفارياق" وهو كتاب لم يكتب مثله شرقيّ، تَرْجَمَ فيه لذاته، ووصفَ فيه حياته وأسفاره؛ على نهج يستوي معه وكبار المؤلّفين العالميّين الذين ترجموا لذواتهم. والشدياق يأتي في طليعة كتّاب المقالة في العالم العربيّ، ومجموعة مقالاته هذه تتقاسم المقالة السياسيّة والعمرانيّة، والأدبيّة واللغويّة، والإجتماعيّة والتاريخيّة.

وهو كاتب لغويّ لا يُجارى. امتاز أسلوبه بالبساطة والوضوح والارتباط والتماسك. تظهر مقدرته اللغويّة في كتابيه: "سرّ الليال في القلب والإبدال"، و"الجاسوس على القاموس". ضمّن الأوّل معظم آرائه وطريقته في اللغة، من حيث النحت والوضع والقلب والاشتقاق، واستطال، في الثاني، على الفيروزآبادي صاحب "القاموس"، بأربعة وعشرين نقدًا. وقد أثار بكتابه: "غنية الطالب ومنية الراغب" (في الصرف والنحو وحروف المعاني) الذي ألّفه في مصر وقصد به إلى تسهيل قواعد اللغة، ضجّة علميّة تجاوب صداها في كتاب الشيخ سعيد الشرتوني "السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب". فنشبت بين أدباء العصر، إذ ذاك، معركة لغويّة جدليّة اشترك فيها الشيخان يوسف الأسير وإبراهيم الأحدب يردّان عن الشدياق السهام المسدَّدة إليه من المعلّم بطرس البستاني والشيخ إبراهيم اليازجي يهاجمانه ويجرّحانه.

ويبدو روح التجديد في الشدياق الصحافيّ، في أسلوبه وفي التعبير والتفكير الإجتماعيّ، فأفلت من القيود التقليديّة، وانتقد أساليب العلماء والأدباء، في عمله بتحرير "الوقائع المصريّة" ولا سيّما في "الجوائب" التي أصدرها في الآستانة نيّفًا وعشرين سنة (١٨٦١–١٨٨٣)، أسبوعيّة. وأنشأ لها مطبعة خاصّة أصبحت من أشهر مطابع السلطنة العثمانيّة، بما تولّت نشره من كتب، وإحياء من الاصول القديمة. فكانت "الجوائب" مدرسة صحفيّة، فجعلت من الصحافة ميدانًا واسعًا لبحث الشؤون العامّة في السياسة والاجتماع.

وهو ناقد إجتماعيّ يعجّ بالتهكّم والسخرية. نقدَ الناس، أفرادًا وجماعات، والأسرة، إذ طالب بعتق المراة من جهل الرجل وعتق الأولاد من جهل الوالدين، ونقدَ المجتمع الشرقيّ والغربيّ على السواء.

يوسف أسعد داغر،

"أحمد فارس الشدياق ١٨٠٤–١٨٨٧" في **مصادر الدراسة الأدبيّة**، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سِيَر أعلامه، الراحلون (١٨٠٠–١٩٥٥)، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانيّة، ٧، قسم الدراسات الأدبيّة، ١٩٨٣، ص ٤٥٧–٤٥٨.

###

وقد اخترنا، فيما يلي، بعض الألفاظ التي درجت على قلمه في "الجوائب"، وقبلها في كتابه "كشف المخبّا". من هذه الألفاظ ما بقي في التّداول، ومنها ما استُبدِل غيره به، فلم يتخطَّ زمن الشدياق. منها **مجلس مشورة**، و**مجلس شورى**، و**مجلس نوّاب**، استعمل

هذه المصطلحات الثلاثة لمعنى واحد، واستقرّ على الأخير في الجوائب، وقال أيضًا إنتخاب. جاء في العدد ٨٤٨ من الجوائب: المُراد بمجالس الشورى المجالس التي يحضر فيها نوّاب الأمّة بانتخاب شرعيّ لا المجالس التي يحضر فيها وزراء صاحب المُلك ووكلاؤه، فهذا النظام لا يُغني عن مجلس النوّاب. و**الجامعة** بدأت **المدرسة الجامعة** في كتاب "الواسطة"، ثمّ جرى عليها الاختصار. وقال **مُسَبِّت** لما نعرفه اليوم بالمخدّر أو البنج. وما نعرفه اليوم بالصيدليّ فقد درج على قلم الشدياق عدّة أسماء منها **دوائيّ** و**عقاقيريّ** و**صيدليّ** و**بائع أدوية**، و**دوائيّة** للصيدليّة. وقال **ظلّة** و**شمسيّة**. و**مبيت** للفندق أو النزل. و**قصبات حديد** لما نسميّه اليوم بالأنابيب أو القساطل. و**الإرجاف الكهربائيّ** أي التيّار الكهربائيّ. ولعلّه ولّد الأسم من الأثر الذي تحدثه الكهرباء في الأعصاب من الإحساس بالرجفة أو الإرجاف.

ولما افتُتح معرض باريس سمّاه **معرض التحف**، ثم فرّع الجملة فقال **معرض**، وشرحه بأنّه ما يُعرف عند الفرنسيّين بالإكسبوزيسيون، ثمّ قال **متحف** وعرّفه بالموزيه، أو الموزيوم. وقال **معمل** و**مصنع** مستنكرًا استعمال فبركة التي درجت في ذلك الزمن، وانتقد من كان يقول بمارستان، فقال **مستشفى**. واستعمل كلمة **جواز** لما نعرفه اليوم بنفس الاسم أي جواز السفر. وقال **ملاكمة** للرياضة المعروفة و**المسايفة** للمبارزة بالسيف. وقال **محترَف** و**إعلان** و**إعلام** و**منتدى** و**موقف** و**حافلة** و**ملهى** و**منطاد** وهي الغيمة الصغيرة أو الهواء المرتفع، و**طابع أميريّ**، و**عَجَلَة** لما نعرفه اليوم بالعَرَبة.

عماد الصلح،

أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، الطبعة الثانية، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ١٥٣-١٥٤.

###

يحتلّ أحمد فارس الشدياق موقعًا متفرّدًا بين رجالات النهضة العربيّة الحديثة. ولا مبالغة في القول إنّنا ندين له بمعظم ما هو حيّ وجديد في لغتنا والأدب في القرن التاسع عشر. الشدياق اللغويّ نقد "القاموس المحيط" للفيروزبادي ("الجاسوس على القاموس" اسطنبول ١٨٨١) وأبان فيه أربعًا وعشرين مثلبة. واختاره لغويّو مصر لتقديم "لسان العرب" لابن منظور في طبعة بولاق الشهيرة (١٨٨٣). له حوارات شهيرة في اللغة مع أنصاره أمثال يوسف الأسير (١٨١٥-١٨٩٠)، وإبراهيم الأحدب (١٨٢٩-١٨٩١)، وخصومات وسجالات في هدا الحقل مع ناصيف وإبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦)، وبطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣)، وأديب اسحق (١٨٥٧-١٨٨٦)، وغيرهم. حتّى إنّ مارون عبّود كتب تعليقًا على كتابه "سرّ الليال في القلب والإبدال" (١٨٨٤) أنّ "من شاء أن يؤلّف في اللغة بعد الشدياق فليستحِ". على أنّ الشدياق، خلافًا للكثير من اللغويّين، لم يكتفِ بسبر أعماق اللغة وبيان أسرارها، بل كان رائدًا في تجديدها. على غزارة إنتاجه الشعريّ، لم يأتِ جديدًا في الشعر. فقد ظلّت قصائده تقليديّة، خلا لفتة سخرية هنا، وشطحة غنائيّة هناك، أو قافية مبتكَرة هنالك. إلّا أنه قدّم مساهمة حاسمة في التأسيس للنثر العربيّ الحديث. تخلّى عن أشكال التزويق والمحسّنات اللغويّة، ورفض السجع الذي شبّهه بأنّه "للمؤلّف كالرِّجل الخشبية للماشي" — والشدياق لم يكن ليكتفي بالمشي على رجليه الإثنين، كان يركض ليسابق العصر. وهو غَرَفَ من مفرداتِ وتراكيبِ المحكيّة العاميّة، وكشف أغرب الألفاظ والكلمات والمترادفات والتراكيب الفصيحة في آن معًا. وتشكّل رائعته "الساق على الساق" (١٨٥٥) أبرز نصٍّ أدبيّ في القرن التاسع عشر، ومنعطفًا في الكتابة العربيّة الحديثة. كتب فيها السيرة الذاتيّة بأسلوب روائيّ، وذكريات الطفولة والشباب، بقدر ما أحيا أدب الرحلات

والحكاية والمقامة والأدب الجنسيّ. وفي كلا الحالين، كان يبلور أسلوبه الفذّ القائم على حسّه المرهف للمفارقة، وملكته النقديّة، وارتقائه بالسخرية إلى مستوى الفنّ القائم بذاته.

والحاصل أنّ الشدياق، اللغويّ والكاتب والصحفيّ والمترجِم والناقد والفنّان، مثقّف عربيّ متكامل في القرن التاسع عشر. غذّى تجذّره العميق بالتراث الفكريّ والأدبيّ بعميق معرفته بالنتاج الفكريّ والأدبيّ الغربيّ، المعاصر منه والكلاسيكيّ. وكان من أوائل من حصّل المعاش من الكتابة والترجمة والصحافة. وهذا ما جعله دائم البحث عن مصدر رزق، مضطرًّا إلى العيش في أصعب حال، مدركًا أنّ "الرزق الذي يأتي من شقٍّ كشقّ القلم لا يكون إلّا ضيّقًا". عمل عند الأمراء المقاطعجيّين ورجال الدين وفي خدمة الحكّام والدول. وقصّته في ذلك قصّة النزاع الدائم بين المعرفة والسلطة، بين القوّة والثروة من جهة والعلم من جهة أخرى، بين الحرّيّة والحاجة. من هنا علاقته المتفارقة بذوي السلطان: يمدح، يجالد، يساوم، ثمّ يَزْوَرُّ ويشاكس ويعاند، فيغادر ويهجو. كان مدّاحة استثناء، هجّاء قاعدة، مدفوعًا إلى ذللك بكبرياء وعزّة نفس تصلان حدّ المرض. وبمقدار تقلّبه بين رجال الدولة والدين، وكتابته بوحي من أفكارهم وسياساتهم، كان وفيًّا لمن اقتنع بهم وبمشروعٍ حملوه. لكنّه لم يساوم قطّ على الأساسيّات، وبخاصّة لسانه العربيّ وانتمائه العربيّ.

فوّاز طرابلسي؛ عزيز العظمة،

أحمد فارس الشدياق، ط. ١، لندن–بيروت–قبرص، رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٥، ص ٨–٩.

###

بين روّاد عصر النهضة يقف أحمد فارس الشدياق وقفة مارد. وُلد في عشقوت (كسروان) ونشأ في حدث بيروت، وشرّدته مأساة أخيه بين مختلف البلدان والمذاهب.

استغلّ صداقته المستجدّة لخلق أهمّ منبر إعلاميّ في القرن الفائت، طوال نصف قرن، عبر مؤسّسته "الجوائب"، وكانت مساهمته في "الوقائع المصريّة" فتحت له الطريق.

ربّما مأساته الشخصيّة وظروف التغرّب من الأسباب التي فتّحت مواهبه الأدبيّة، وهكذا خرّيج مدرسة "عين ورقة" صار معلّم العالم العربيّ في القرن التاسع عشر، كما وصفه مارون عبّود. وكان تأثيره على اللغة المعاصرة حاسمًا وبعيد المدى، والصحافة العربيّة المعاصرة مدينة له، سواء في مجال التحرير أم التعليق أم الأسلوب أم اللغة، وفيها المصطلحات التي ابتكرها: الجريدة، مجلس النوّاب، مجلس الشورى، الجامعة، المستشفى، المعرض، الإشتراكيّة، الباخرة، الصيدليّ، الحافلة، الموقف، المنتدى، المحترَف إلخ.

نُقِل جثمانه إلى وطنه عملًا بوصيّته، وفي الذكرى الخمسين لوفاته كرّست له مجلّة "المكشوف" عددًا تصدّرته لوحة لصورته بريشة قيصر الجميّل، فقال مارون عبّود: شرّد الشدياق من لبنان حبيشيّ (يقصد البطريرك يوسف حبيش) وأعاده إلى لبنان حبيشيّ (يقصد الشيخ فؤاد حبيش صاحب "المكشوف").

وصفه الدكتور لويس عوض بأنّه "أعظم كاتب ساخر في الأدب العربيّ قديمه وحديثه". وقارن المستشرقون بينه وبين رابليه من حيث الآثار والتأثير. وفي كتابه "الساق على الساق" أبدع الشدياق أسلوبًا في السيرة الذاتيّة لم يسبقه إليه أحد، فكان تحفته.

عصام محفوظ،

حوار مع روّاد النهضة العربيّة، قراءة جديدة في أعمالهم، الطبعة الثانية، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٠، صفحة ١٩.

###

أغضبه أشدّ الغضب موت شقيقه أسعد الذي قضى على يد سلطات طائفته شهيدَ حرّيّة المعتقد الدينيّ، فرحل إلى مصر العامَ ١٨٢٥ وبقي فيها نحو عشر سنوات يتعمّق بالعربيّة، وهناك حرّر صحيفة **الوقائع المصريّة** خلفاً لرفاعة الطهطاويّ. ثمّ جاء مالطة (١٨٣٤–١٨٤٨) بدعوة من المرسلين الأميركان، فتولّى إدارة مطبعتهم، وتصحيح الكتب العربيّة، وتعليم لغة الضادّ. وذهب بعد ذلك إلى لندن العامَ ١٨٤٨ ليعاون جمعيّة ترجمة التوراة في ضبط العبارة العربيّة، ونال الجنسيّة الإنكليزيّة، ثمّ توجّه إلى باريس وفيها التقى باي تونس فامتدحه بقصيدة عصماء دفعت الباي إلى دعوته لينزل عاصمة بلاده ، فتولّى فيها تحرير جريدة الرائد التونسيّ، واعتنق الإسلام وصار اسمه أحمد فارس الشدياق.

وفي سنة ١٨٥٧ ارتحل إلى الآستانة بدعوة من السلطان، وأحرز فيها مكانة مرموقة أتاحت له أن يتّصل بملوك وعلماء ورجال سياسة في الشرق والغرب. وأصدر جريدته **الجوائب** (من ١٨٦٠ حتّى العام ١٨٨٤ حين نقلها ابنه سليم إلى القاهرة)، وبقي في عاصمة السلطنة حتّى وافاه الأجل في ٢٠ من شهر أيلول/سبتمبر ١٨٨٧. ويبدو أنّه لما شعر بدنوّ أجله استدعى كاهنًا من الأرمن الكاثوليك ومات على المسيحيّة.

الأب كميل حشَيْمه،

"أحمد فارس الشدياق" في **المؤلّفون العرب المسيحيّون من قبل الإسلام إلى آخر القرن العشرين**، طبعة أولى، المجلّد الخامس، بيروت، دار المشرق، ٢٠١٢، ص ٣٥٧–٣٥٨.

###